

# اللغة بين الفرد والمجتمع

د. عبد العفار حامد هلال

وهذا الانتماء يأخذ أشكالاً متعددة ، فهو - أحياناً - سياسي ، أو جغرافي ، أو جنسي ، أو لغوي ، وقد تعددت المصطلحات السياسية التي تطلق على تلك الجماعات<sup>(3)</sup> .

يد أنها تعني - هنا - جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هي ما نسميه (الجماعة اللغوية) ، وهي : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر إلى الكبير ، فهي تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

ولا يمكننا كثيراً الاختلاف السياسي أو الديني إذا توفر الاشتراك اللغوي<sup>(4)</sup> .

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة إلى وحدات

مدخل :  
الإنسان مدنٍ بطبعه - كما يقول علماء الاجتماع - فهو ينتمي إلى الانتماء إلى طائفة من بيته جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسمات ، التي تميز جماعة عن غيرها ، وبعث ذلك الغريزة التي ركب عليها الإنسان ، والتي تدفعه إلى تكوين هيئة اجتماعية ولذا يمكن لاثنين من شعوب مختلفين أن يألفوا على بعض الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيها إذا عاشا معاً مدة طويلة ، كفرنسي وفارسي أو عربي وإنجليزي مثلاً<sup>(1)</sup> .  
وانتماء الفرد للجماعة يتعدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيراً الجنس البشري<sup>(2)</sup> .

(1) فندرس : اللغة ص 302.

(2) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2.

(3) من هذه المصطلحات : (الشعب) و(الدولة) و(الأمة) فالشعب : جماعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبر سياسياً وقانونياً يشير إلى الوحدة السياسية التي تضم أركاناً ثلاثة هي : (شعب وإقليم وسلطة سياسية) . والأمة : جماعة من الناس يرتكبون بأهداف مشتركة ويتداولون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التفاهم في عدد من العناصر ، كالأهل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ .. وقد تسمى إحدى الجماعات (شعباً ودولة وأمة) ، وقد تسمى (شعباً ودولة لا أمة) كسكان سويسرا ، وقد تعرّف الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ولا يعني هذا فناء الأمة كالأمة البولونية بعد تعرّفها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربي أمة ، وإن توزعت السلطة فيه .

انظر : د. أحمد كمال أبو الحمد : دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية ص 24 - 29.

(4) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 52.

للحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يهدى على إثر هذا الارتك إلى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا للغات وتاريخها ، وتطورتها .

## أثر الفرد في اللغة

«اللغة هي الصورة اللغوية المتألية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في مجموعة واحدة»<sup>(8)</sup> .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فالفرد يرتبط بجعاته ويقدس ما يقدسون ، ويأتي من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يطبع عرف الجماعة ، وإن خالف اعتقاده<sup>(9)</sup> وإذا سلمنا «بوجود الفرد والمجتمع . باعتبار كل منها وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوي أيضا ، أن تتكلّم عن اللغة الفردية . واللغة الجماعية ، وكلتا هذين العنصرين يؤثّر ، ويتأثّر بالعنصر الآخر»<sup>(10)</sup> .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عند الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتسم بالبحث في الجانب الفردي ، والجانب الجماعي ، وإن كان علماء الاجتماع يقونون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم : أن التعرف على الفرد يؤدي إلى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها إلى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموعة الظواهر المشتركة بين جميع الأفراد .

ويقول أوجست كونت (ليس من الضروري أن نعرف ما هو الإنسان حتى نعرف ما هي الإنسانية ولكن من الضروري أن نعرف ما هي الإنسانية حتى نعرف ما هو الإنسان) .

صغيرة ، ونظر إلى كل وحدة في إطار اللغة التي تتحدث بها ، في القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتعددة من المتعلمين والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والأشقاء وغيرهم .

«وتلعب اللغة (دوراً ذا أهمية عظمى في الجماعة الاجتماعية) منها كانت ومنها كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التي تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهي على الدوام — رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آلة أفعل من اللغة في توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، والاختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة : هنا يعرف بعضهم ببعض . وبهرب بعضهم إلى بعض»<sup>(11)</sup> .

وبديهي أن اللغة هي الأداة التي يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير بما يفهم من شئون ، وهي قانون من قوانين هذه الجماعة ، بعد الخروج عليه أمراً صعباً ، ومحجاً ، ومؤدياً إلى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها<sup>(12)</sup> .

«وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الإنسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة .... وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة كما تلاحظ ذلك في كل مجتمع معروف»<sup>(13)</sup> .

ولم يكن يدرك قدّيماً ما للغة من صلات بالمجتمع الذي تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله التي لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائفها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الإنسانية ، وأدراك حقائق الظواهر الاجتماعية

(5) فندريلس : اللغة ص 303 ، 304.

(6) نفس المرجع السابق.

(7) د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفيّة ص 112 نقلًا عن أدوارد ساير.

(8) فندريلس : اللغة ص 306.

(9) جسيرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2.

(10) نفسه ص 5.

عدة عقول فردية ، قد تأثرت بظروف ، ودفافع متشابهة ، ولست أدرى لماذا يقول دي سوسيير (العقل الجماعي) ولا يقول (البطن الجماعي) والرجل الجماعي والألف الجماعي ، إذ ليست لذلكفائدة.

فاللغة ليست القاعدة ، وليس الألفاظ ذاتها ، بل هي شيء آخر يتمثل في الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، في نفوس أفراد الجماعة ، لا في العقل الجماعي . ويقرب من ذلك قول دي سوسيير في عبارة أخرى (اللغة هي مجموعة من صور الألفاظ مختلفة في نفوس أفراد الجماعة اللغوية)<sup>(١٤)</sup> .

وينتهي جسبرسن — بعد الرد على دي سوسيير — إلى أن اللغة ليست شيئاً آخر غير الكلام ، بل هي الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظريتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة ، والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكريتهما تفريقاً حقيقياً بلا علامات لغوية ، أي كلمات ، فالتفكير بلا كلمات تمام<sup>(١٥)</sup> «والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها»<sup>(١٦)</sup> وما يسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس في الواقع إلا أقسام اللغة ، فقول صاحب الألفية الكلام وما يتالف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه<sup>(١٧)</sup> فالكلام الذي هو نشاط إنساني قطعي نتيجة لارادة المتكلم<sup>(١٨)</sup> يعد الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، وجودها في طوابيا العقل ، أو المعاجم فاللغة بمادتها المكونة لها توجد

فالتعرف على الجماعة يؤدي إلى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساساً لمعرفة لغة الأفراد<sup>(١٩)</sup> .

وقد دار نقاش ، وجدل بين الباحثين حول اللغة والكلام ، وجعلتها بالعقل الفردي ، والعقل الجماعي . فيرى دي سوسيير<sup>(٢٠)</sup> أن اللغة غير الكلام ، فاللغة مجموعة محدودة من المفردات ، والتراكيب ، توجد في كتب القواعد والقاميس ، وتحتقر في عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردي ، مختلف من فرد إلى آخر ، من أبناء الجماعة اللغوية الواحدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثا من جماعته ، ولا يملك التدخل في اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فإن لكل منها علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقد قال بالي (تلميذ دي سوسيير) : إن الكلام نشاط لغوي فردي يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحده الذي يعبر عن الواقعية ، والعاطفية ، بعكس اللغة التي ليست سوى امكانيات تعبيرية .

ومن هنا فإن دي سوسيير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفراد ، وإذا صح أن يكون هناك عقل فردي . فهناك كذلك عقل جماعي .

وقد اعترض جسبرسن<sup>(٢١)</sup> على هذا التفريق ، وقال : إن العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التي تمر به ، ولا يعود الاتفاق في العاطفة أو الرأي في جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق في حكم يصدر عن

(١١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2.

(١٢) عالم لغوي سوسييري .

(١٣) عالم لغوي دانيموري .

(١٤) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23 .

(١٥) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 244 .

(١٦) نفسه ص 39 .

(١٧) نفسه ص 40 .

(١٨) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 39 .

لدى أي طفل في أي مكان لغة فطرية<sup>(23)</sup> وهو يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه، فاللغة ليست وراثية، بل إنه يتلقاها من يخالطهم؛ ولذا فإن طفلاً عربياً نُشِّئ في بيئته الإنجليزية تعلم لغة الإنجليز. والعكس صحيح أيضاً<sup>(24)</sup> «بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة للأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والمدببة. وحتى الخراف. وتعلموا أنواعاً من اللغة الحيوانية. فعنوا كالذئاب، وثروا كالخفاف، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الإنسانية<sup>(25)</sup>».

فالأطفال يتعلمون لغة الجماعة التي يولدون ويعيشون فيها بنفس السرعة التي يتعلمنها بها أهلها الأصليون، ويتكلمونها كما يتكلمونها أهلها الأصليون<sup>(26)</sup>.

وقد توصلت طائفة من اللغويين إلى بعض الملاحظات المهمة التي تتعلق بلغة الطفل، وأهمها التقسم الثلاثي الذي ارتضاه جسبرسن، وهو أن النمو اللغوي للطفل يمر بثلاث مراحل:

- 1) مرحلة الصباح.
- 2) مرحلة الباقة.
- 3) مرحلة الكلام.

#### المراحل الأولى (الصباح):

فالطفل يصرخ منذ يولد، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقي ليس كلاماً، ولا يتعلم الطفل به أية

في القواميس أو تخزن في عقول الجماعة الإنسانية التي تتخذها وسيلة للتفاهم وما قواعد خاصة يفهمها أصحابها، ويراعونها في استعمالهم من ناحية النظام الصوتي، والصرفي، والنحوي، واللغة بهذا الوصف تسمى بالـ(اللغة المعنية)<sup>(19)</sup> التي هي نتاج جماعي يستعمله الأفراد، «ولكلام علاقة باللغة المعنية، ولذلك يجب أن يدخل في الدراسة لأنه الجانب العملي منها»<sup>(20)</sup>.

ومن المتعارف عليه بين دارسي العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية، ثم لا تثبت أن تشيّع بين عدد من الأفراد، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية<sup>(21)</sup>.

والمدرسة اللغوية الإنجليزية، وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية، تهم بالشخص والشخصية، لكن لا تنظر إليه باعتباره «مستقلًا» وإنما تدخل في حسابها أنه عضو في جماعة كلامية معينة<sup>(22)</sup>.

ولا ريب أن جوانب التأثير في اللغة كثيرة. بعضها ينشأ عن الأفراد، وبعضها يرجع إلى المجتمع. وللتأثير الفردي مظاهر عدّة، فهو يتناول: الأصوات، والمفردات، والتراكيب.

### 1 - أثر الفرد في الأصوات

تبدأ الممارسة اللغوية للإنسان منذ طفولته. فالطفل يولد وعنه الاستعداد لتلقي اللغة – أية لغة إذ لا يوجد

(19) فندرس : اللغة ص 303 ، 304 .

(20) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 32 - 35 .

(21) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 20 ، 21 .

(22) د. السعري : اللغة والمجتمع ص 25 - 31 .

(23) كندراتوف : أصوات وإشارات ص 191 .

(24) فندرس : اللغة ص 298 .

(25) كندراتوف : أصوات وإشارات ص 191 ، 192 .

(26) فاللغة «مكتسبة» ولكن أثمة دخل للوراثة في قدرة الأطفال على اكتساب اللغة؟ وهل للوراثة شأن في اكتساب طفل لغته أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة، وعلم الأعصاب وعلم الحياة العام (الأحياء : البيولوجيا) إذ البحث فيها لما يصل إلى الغاية المنشودة، ويتضرر أن تؤدي البحوث المقبلة فيها إلى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها.

انظر: د. السعري : اللغة والمجتمع ص 27 ، 34 .

(الأكل) (أمي) بدلًا من (ميه) و(ب) بدلًا من (عيش)  
مثلاً وقد سمعت ابني في تلك المرحلة يقول (مكّن) بدلًا  
من (مطبخ).

### ب - فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيراً ، ويظل وقتاً طويلاً حتى يصير  
كلامه مثل الكبار.

ولاشك أن الطفل في تلك المرحلة يعرف كثيراً من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .  
فيقول مثلاً (ستينه) مكان (سكنه) و(تاب) مكان  
(كتاب).

وقد لاحظت أن ابني في أول هذه المرحلة – يميل إلى  
قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (تغلب) ...

وبعض الأصوات اللغوية قد يفتقى على الطفل ، أو  
يظل صعب النطق لا يتنبه إلا في مرحلة متأخرة كصوت  
الراء أو السين في بعض الأحيان.

وكثيراً ما يكتفى الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن  
نطقها كاملة فقد سمعت ابني يقول (كب) مكان  
(كلب) (باية) مكان (كباية) ونحوها ..

ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز الكلام الذي  
يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذي يوجه إليه بحدة ،  
وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثاني .

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجانب  
الصوتي للكلمات مرتبطاً بالمعنى .

وعادة ما يدرك معاني الكلمات التي تلقى عليه قبل أن  
يستطيع نطقها بزمن طوبل ، وهو يدرك المحسوسات قبل  
المعنيات .

وأخيراً يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما  
يلقى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ،

لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياغ مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدي  
في أوله – غرضاً ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه  
الطفل في التعبير العام عن كل ما يفهم وبخاصة عندما  
يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتي  
على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

### المراحل الثانية (الباءة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل آأاااااااااااااااااااااااااا  
مم - بب - تت - دد - الخ .

وتكون في أولاً نشاطاً عضلياً خالصاً ، ثم تأخذ  
أعضاء النطق عنده شيئاً فشيئاً في التدريب عليها ،  
والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذي يريد  
ويأخذ الطفل – بعد ذلك – في تدريب عضلاته  
الصوتية على النطق بهذه الأصوات التي يستمع بها هو  
ومن حوله .

والثانية أن أول ما ينطقه الطفل صوات مفردة ، أو  
صوائت يسبق كلاً منها صوامت مثل (لـ - رـ - تـ - الخ)  
(وتعد الصوائت الشفوية التي يرمز إليها بـ m , b , p , b  
, م) من الصوامت الأولى التي ينطقها الطفل ، إن لم  
تكن أولها على الإطلاق» وفي هذه المرحلة ربما صدرت  
عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأيمجذبة التي  
 تستعملها جماعته مثل (P , t , v) عند طفل عربي مثلاً ، يبد  
 أنه ينطق عدداً كبيراً من أصوات أيمجذبة قومه .

### المراحل الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالي نهاية السنة الأولى ، وتقضي سنوات  
طويلة وتمر خلافاً بمحطتين .

#### ١ - فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيراً عن الأصل  
الذي يقلده ، كأن يقول الطفل المصري (م م) بدلًا من

وينهي جوشات - كذلك - أن يكون للفرد - صغيراً أو كبيراً - أي أثر في التطور الصوتي فيقول : «ليس للفرد أي دخل في التطور الصوتي» وقد اعتمد في حكمه هنا على النتائج التي توصل إليها في بحث تبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بول) *Bulle* في مقاطعة قريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة مسؤولة تماماً عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقاً كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، وما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقاً صوتية بين أفراده تمثل الفروق التي وجدتها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقاً مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الأقليم تختلف عنها في جزء آخر . بل إنها كانت فروقاً زمنية ، أي فروقاً بين جيل وجيل . وأن الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، في جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتي الثين من الشيوخ - يتسم أحدهما بجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجزء الذي يتسم إليه الآخر - ثبت تحقق التشابه في مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذي يتسم إليه وهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام .

### ١) المعمرون :

وهم بين الستين والسبعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قدية كثيرة ما تبدو غريبة لسوادهم .

(27) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 34 - 54 ، د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 110 - 155 ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 68 ، 69 وكثاراتوف : أصوات وأشارات ص 190 - 193 .

(28) جسبرسون اللغة بين الفرد والمجتمع ص 45 .

وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئاً فشيئاً . وللطفل قياسه اللغوي في التواحي الصوتية والتحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرّب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالباء - كما هو العادة الشائعة - . فطبق ذلك على بعض الكلمات التي لا تونث بالباء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلاً قال : (أخضرة) وأحمر قال (أحمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين يتمتعون إلى جماعته الكلامية وإن كانت ثمة أخطاء عامة يشتراكون فيها جميعاً<sup>(27)</sup> .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهو لاخطائه أثر في أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد - بصفة عامة - صغاراً أو كباراً تأثير فيها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون في نسبة التغير الصوتي إلى الأفراد . فيبني (جوشات) أن يكون للطفل أي أثر في التطور الصوتي للغة فهو يقول : «إن كل لغة تتبايناً تبايناً خاصاً بين جيل وجيل يمكن للتطور في أصواتها ، وبذلك يتضمن أبناء الجيل اللاحق من الراشدين - دون الأطفال - للتطور الجديد ، وليس الطفولة سوى مرحلة تقليل لغوي ولا أكثر . وعندما يخطي الطفل في نطق بعض الكلمات وليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلّمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كافية بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد . ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنًا مناسبة ، أي عندما يتجاوز دور الطفولة»<sup>(28)</sup> .

2) المحدثون :

وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون الأفاظهم بطريقة حديثة .

3) المتوسطون :

وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكونون في نطقهم حداً أو سط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم في اختبار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلاً لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطراً من دور الرجل .

وقد أثبتت جوشات أن الفرد ليس له أثر في التطور الصوتي ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لبناء هذه المنطق لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردي في تطور اللغة التي يتكلّمها أبناء هذه الجماعة اللغوية . وينسب جوشات التغير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول أن التغير أمر حتمي طبيعي وليس أمراً خاصاً لارادة فرد متّميز أو غير متّميز ، ويعني أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك لأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلّد ويُنطّق في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلّدون وهكذا<sup>(29)</sup> .

ويتفق فندريس مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : «Sad شطرا طويلاً

(29) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 ، 38 .

(30) فندريس : اللغة ص 69 .

(31) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 - 44 .

(32) فندريس : اللغة ص 296 .

(33) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفيّة ص 94 .

من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيراً فردياً ، ثم عمّ ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أي فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تبوا عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأنّجل أن بصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تقاء أنفسهم ، بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب اتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه»<sup>(30)</sup> .

ويرى جسبرسون أن تأثير الصوتي للأفراد غير مسلم به ، وأن البحث الذي أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لإثبات أثر الفرد في الأصوات<sup>(31)</sup> .

ولعل الدافع إلى انكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس «إن العالم اللغوي لا يعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متّرداً بين الاعتبار الفردي والاعتبار الجنسي بأسره»<sup>(32)</sup> . ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معركة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الإنسان أن يقول عند أي حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن ننقط إلى التغيرات التي تأخذ بمحاجها الآن على غير وعي منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرّر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فردياً ثم اتسع مدى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ، ولا يستطيع نسبته إلى فرد معين منهم»<sup>(33)</sup> .

والحقيقة التي لا يمكن انكارها أن التطور الصوتي

وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسع من أولاد نظاء أهله – ولو كانوا مثله سناً – كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائل من اتصل بهم من قبل<sup>(34)</sup> .

ومن الممكن أن يتذكر الفرد لفظاً من الألفاظ – كما يحدث في الجامع اللغوية – أو أن يرتكب خطأً في نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويُشيع ، وليس اشتراط شيع الابتكار الفردي في اللغة مغيراً للأمر الواقع الذي هو أن الفرد وليس الجماعة هو السبب في التغير اللغوي<sup>(35)</sup> .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا في محيط الأسرة.

وما يتذكره الفرد في مجال اللغة ، نقل الألفاظ إلى معانٍ جديدة ، ويشرط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف في أسلوب المجاز . وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى مهانٍ خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو الطاغوت اسمًا لوالد مستبد ، (القط) لطفل مدلل في

يعد في بعض نواحٍ إلى الأفراد ، وإن لم يتعين الفرد الذي تابعه غيره ، فمن الحق الذي لا ريب فيه – كما يقول فندريس – أن كل فرد يدخل في اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به»<sup>(36)</sup> .

ومن المسلم به «أنه لا يتكلّم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتي»<sup>(37)</sup> و«أن الفرد كما يقول الدكتور ثام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئاً فشيئاً عن نطق المجموع حتى يختلف عنه»<sup>(38)</sup> .

قد شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتى تعمم ، فالجانب الفردي ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقاً<sup>(39)</sup> .

## 2 - أثر الفرد في المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد في المفردات والتراكيب فهو واقع لغوي يُعرف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، إن الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا

(34) فندرис : اللغة ص 295 ، 296.

(35) د. ثام : اللغة بين المعيارية والوصفيية ص 92.

(36) نفس المرجع السابق ص 92.

(37) في العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت الناف الذي تحول على لسان غير المتقفين بالعربية إلى (كاف) والذال تحولت في العامية إلى زاي أو دال وهكذا ، وبعض الطواهر اللغوية تؤدي إلى التطور الصوتي ، ظاهرة التفحيم أدت – مخالفة للفصحي – إلى نطق كلمة (دَرْب) : (ضَرْب) – في العامية – بتحويل (الذال إلى ضاد) .

(38) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 57 . وابنظر : جسيرسن – اللغة بين الفرد والمجتمع ص 53 – وقد اثبتت التجارب أن الأطفال ينتزعن بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع منهم كثيراً يرتجلون كلمات مرکبة من حروف عدة.

انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 87 – 89 وأحمد الاسكندرى : فقه اللغة ص 30.

(39) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال في اللغة العربية ، فالعربي الفصيح كان يخزع الألفاظاً ويشتّق أخرى أو يقيسها متبوعاً طرق التجديد في ذلك ، ويرى عن رؤية وأيه أنها كانتا يرتجلان الألفاظاً لم يسمعاها ولا سيما إليها . والباحث في العربية يعثر في بعض مصنفاتها على كلمات وصفتها على كلمات وصفتها على كلمات مصنوعة . وقد أورد السيوطى في المهر عددًا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاحتزاع والصيغة ، وقد روى في بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتطرفاً ..

وفي كتب النحو ما يرشدنا إلى اعتراضهم بالارتجال في أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى متقول ومتجل . وفي العامية كثير من الألفاظ التي لا أصل لها في اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهي ترجع إلى احتزاع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون – على سبيل الاحتزاع – وهم طلبة مثل :

أحمد على معاہ) بدل (عال معاہ قلم أحمد) لئار شعور  
السامعين خالفة العرف اللغوي .

ولذا يشترط في ابتكار الفرد عنصر الأفهام لدى  
المجاعة اللغوية . اللهم إلا في لغة الطفل أو (رغائمه) فإنها  
تفقد هذا المنصر . وكذلك محاولة ارسال بعض  
الأصوات مجرد اللهو والموى ، وفيما عدا ذلك يجب أن  
يتبع الفرد في كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة<sup>(٤٠)</sup> .

الأسرة و(شعبه) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما  
يستعمل في نطاق محدود . وهو نوع من ابتكار المعاني  
ونقل استعمالات الألفاظ .

والفرد — حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب —  
مقييد بالعرف اللغوي المتعلق بالدلالة ، وقد أشرنا في  
حديثنا عن الدلالة إلى أن خالفة الأساليب العربية يزيد  
من صعوبة المعنى<sup>(٤٠)</sup> ولو نطبقا — في العامة — (قلم

وهم عشر العقلمين . تفتحت سلفا قناء كبرى . في القنطرة

انظر : ابن جني : الخصائص 2 / 21 -- 28 ومواضع أخرى منها 3 / 298 . والسيوطى : المهر 1 / 52 - 56 - 63 - 67 ،  
90 وغيرها . والأصفهانى : الأغاني 3 / 62 والسعودي : وبروج الذهب 4 / 43 والاشموني 1 / 131 ، د. أنس : من أسرار  
اللغة ط 3 ص 90 - 92 .

(40) جيرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23 ، 43 .

## آثار المجتمع في اللغة

بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

في العالم اللغوي الألماني فـ N. Finck انه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثاراً معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصويرات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محض ، بـألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة<sup>(3)</sup> .

وقالوا : إن وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما في لغات البانتو<sup>(4)</sup> .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تختفي مسوغ له ، فليس في لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أي دليل على شكل أو طبيعة اللغة ، وحتى في حال المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أي دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابل دماغ خاص يتبع تفكيرًا مختلفاً عن تفكيرنا<sup>(5)</sup> .

وعلماء الأنثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جمام آدمية أن يحددو أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها<sup>(6)</sup> لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عن

### 1 - اللغة والجنس :

كتبت بعض البحوث في (علم اللغة العام) عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فإذاً بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها وتنظيمها ، وبماراتها للحياة والأحداث ، باختلاف المتكلمين بها ، من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجسمية ، فلغات مجدهي الشعر تختلف عن لغات ملوك الشعر<sup>(1)</sup> ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس<sup>(2)</sup> .

وقد استغل هذه النظيرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو فتحذروا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والخامية ، وادعى الغرابة — وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطلبيان — أنهم شعوب راقية ، وأن متحدثي اللغات الأخرى شعوب متخلفة ، ينبغي أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المختلفة ، فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وينعد فيها النظم ، وتتفقده منها الحيوانية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرّى الاعتقاد — كذلك — بين بعض الباحثين

(1) فندريلس : اللغة ص 297.

(2) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65.

(3) فندريلس : اللغة ص 299.

(4) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 14.

(5) فندريلس : اللغة ص 298.

(6) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 68.

بعقلية التكلمين بها ، وبنظمهم ، وبخضارتهم المادية<sup>(11)</sup> .

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر على اللغة تحدث في العقلية آثاراً مماثلة<sup>(12)</sup> .

والواقع ينافق هذا الربط ويعارضه ، فخريطة أوروبا اللغوية في العصر الحاضر تضم أحلاطاً من الأجناس .

ومع هذا فإن فرداً ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتب لغته ، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلي احتاج إلى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه في ذلك شأن أي أجنبي يريد تعلمها ، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلاً فرنسياً تربى في بيئة الزنجي أو الياباني لتتكلم لغة البيئة التي نشأ فيها<sup>(13)</sup> .

وان بعض اللغات التي كتب لها الذبوع والانتشار ليؤكد بطلان هذا الربط فالإنجليزية قد انتشرت في مساحات واسعة من الأرض في قارات كثيرة أيام سيطرة الإنجليز على تلك الشعوب ، واستعمرواها فتكلم كثير منها اللغة الإنجليزية وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربية بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة .

والحديث عن اللغات المختلفة والراقة الحديث غير موضوعي ، فاللغات التي تسم بـ «بيات» (بدائية) يمكن أن تحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال ، وأنفتح لها ظروف التغير تبعاً للتحولات الاجتماعية التي تمر بها الشعب التكلمة بها .

أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار ، التي كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التي كانت تنشأ في مراكزها المخية<sup>(14)</sup> .

ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينفي الخلط بين الميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعياناً قابلة للنقل ، تعار وتتبادل<sup>(15)</sup> .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية ، أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كليهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة والمدنية<sup>(16)</sup> .

ومن الصحيح أن نقول : إن للغة صلة بالعقلية ، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية ناتجاً لأسباب واحدة ، وأن تكون الميزات التي تميزها واحدة ، دون أن يترتب على ذلك صدور احدهما عن الأخرى<sup>(17)</sup> .

واللغة — في بعض الأحيان — تستطيع أن تعدل من العقلية ، وتنظمها فعاذه وضع العقل في مكان بعينه دائماً يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال ، والتفكير الفرنسي ، أو الألماني ، أو الانجليزي خاص لغة إلى حد ما ، فإن اللغة إذا كان مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد التخوية سمحت لل فكرة بالظهور في وضوح تام ، وأتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضيق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة ، ولكن عقلية التكلمين تتصرف لتعتاد أي شكل من أشكال اللغة<sup>(18)</sup> .

ومن الثابت أن بنية آية لغة من اللغات ذات علاقة

(7) فندرис : اللغة ص 376.

(8) فندرис : اللغة ص 298.

(9) فندرис : اللغة ص 298.

(9) نفس المرجع ص 299.

(10) نفسه ص 302.

(11) د. السعري : اللغة والمجتمع ص 65.

(12) فندريس : اللغة ص 300.

(13) انظر ص 8 وما أحلاه عليه من كلام فندريس في كتابه (اللغة).

إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه . وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة المندو الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليا الأفلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون (مغيرة) <sup>(١٤)</sup> .

وفي امكان اللغات الفاقدة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة . فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ولكنها لا تقل من حيث تكيف نفسها لكافة المجالات (الحياتية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأرانية لا تملك مفاهيم مثل (الجبل - التل - النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس المغرافية أمراً صعباً جداً ، ولكن علينا لا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضل) و(الأسوأ) ، ان هذا شيء يقولنا : أيها أفضل شجرة التخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوروبا؟ .

فالناس كلهم سواسية ، بعض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها <sup>(١٥)</sup> .

## 2 - اللغة والمكان والزمان :

للسكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراضي زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراء خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهلين ، فالعربي في الصحراء يجد أمامه الجو الحال من الفراغ الطبيعي ، الذي يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل

(14) د. السعريان : اللغة والمجتمع ص 71 بتصريف .

(15) كندراتوف : أصوات وأشارات ص 83 ، 84 .

(16) من سورة الحجرات الآية

(17) أبو علجم : أبو علي - العشيج : العشي .

(18) ليش : ليك .

إلى ما يعيش فيها ، تشكل جسمه ، وعضلات نطقه ، بطريقة تجعلها مستعدة لازراج مثل تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يملؤون إلى رقة الألفاظ ، والختفاض الأصوات ، ويتبغض ذلك من تأديي التي <sup>متلائمة</sup> من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة ، فطالهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) <sup>(١٦)</sup> .

ويكفي أن نسمع - مثلاً - كلمة (افرنعوا) - بمعنى تفرقوا - وقول بعض العرب :  
. خالي عويف وأبو عليع  
المطهان اللحم بالعشيج <sup>(١٧)</sup>

وقول بعضهم (ليش اللهم ليش) <sup>(١٨)</sup> .  
فهي تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات المتعددة ، وتنافر الأصوات إلى جانب ما في بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التي يلجأ إليها البدوي لحمل الأسلوب لن تخرج عن مجده البيئي ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

ويقول النابغة للنعمان بن المذر :  
فانك كالليل الذي هو مدركك  
وان خلت أن المتأتى عنك واسع  
ويقول له كذلك :

كأنك شمس الملوك كواكب

إذا طلت لم يد منها كوكب

ويصف امرؤ القيس فسه فيقول:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلود صخر حطه السيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونجة

دراكا فلم ينفع باء فيغل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا

تغيراً في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام

القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت الفوشية كلغة عامة

بين العرب ، انطمس معها معظم تلك اللهجات ، وسما

الخيال العربي ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو

يمكن معرفته ، من ملاحظة سير اللغة ، وأدابها ، في

العصر الإسلامي وما تلاه ، وبخاصة في العصر العباسي ،

الذي زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضارة ،

واكتساب الأدباء والشعراء لكتير من ثقافات تلك

الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومي الذي يعيش في الأحياء الشعبية التي

يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره في أبيات

هي :

ان أنس لا أنس خجازا مررت به  
يدحرج الرقاقة مثل اللمع بالبصر

ما بين رؤيتها في كفة كرة  
وبين رؤيتها قوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة  
في الماء يلقى فيه بالحجر

وحينا يسأل : هل يستطيع أن يأتي بمثل ما أتي به

ابن المعتز في وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة

قد أثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ومحكم ، إنما يصف ماعون بيته ... !!

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميّات  
ـ كالآراميّة ، والعبرية ـ بانتظام القواعد وعنوانية  
ـ الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنّها عاشت في بيئة أكثر  
ـ مدنية من أخواتها<sup>(19)</sup> .

وللزمان تأثيره في اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه  
حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا<sup>(20)</sup> .

وانتقال اللغة من جيل يترك أثره في أصوات اللغة ،  
ومفرداتها ، ونظمها وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أنّ أعضاء النطق  
تختلف من جيل إلى آخر ، فهي عند الآباء ، تختلف عنها  
عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالي عند الأجداد  
وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من  
عصر إلى عصر ، وإن كان هذا التطور يسير ببطء لكنه  
يؤثر في الفاظ اللغة ، وبخاصة في أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغيرت  
على لسان العرب المعاصرين سواء في ذلك لسان المثقفين  
بالعربية أو على المستوى الشعبي : فالجمجم العربية تنطق على  
لسان بعض المذيعين حالية من التعطيش أو بتعطيش قليل  
في مصر ، وأما على المستوى الشعبي فقد خلت نهايائهما من  
التعطيش ، على حين أنّ السوريين يبالغون في تعطيشها ،  
وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاي  
على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين  
بالفصحى ، على حين اقلبت إليها على لسان العام ،  
والصاد والسين والزاي قد اختلف نطقها في الحديث عنه  
في القديم ، وناهيك بالانحراف الذي يسري على ألسنة

(19) انظر : د. واقي : علم اللغة ط 4 ص 233 - 236

(20) انظر ص 13 من هذا البحث .

النواحي السياسية ، فترد عبارات : (العالم الحر) . . . (عدم الانحياز) . . . (التحالف) . . . (الصداقة) . . . (المودة) وتفسر في ظل المفاهيم السياسية التي تراها الدول التي يجري بينها التعامل .

وقد نشأ عن هنا تغير مدلولات كثير من الألفاظ والترافق ولو درست معانها في القديم والمحدث لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديماً ، وحديثاً حسب مصطلحات العصر ، وربما أثار هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معاني جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع معاهدة العبارات : (الظلم الاجتماعي) . . . (سيطرة القطاع) . . . (الخلية الثورية) . . . (الدفع الثوري) . . . (الحواجز الثورية للجماهير) . . . (الدكتاتورية الطبقية) . . . (دموية الصراع الطبقي) . . . (نضال الشعب) الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما شاء في الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبه ، والتعامل بين الأئم له وسائله ، ودعایاته والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعایاته أيضاً .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التي يلجأ إليها كل من البائع والمشتري وطرق عرض السلع ، والإعلان عنها يأخذ أساليب شتى ، وأسوق البيع والشراء تحوي دماء البائع والمشتري ، ولذا تبدو في المجال اللغوي للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التي تتمشى مع وصفهم في المجتمع ، فأساليب الزراعة ، والصناعة ، والتجار تجري حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .

ويكفي أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين وصناعيين أصبح لهم بعد الثورة شرف الاتساب إلى

العوام لأصوات القاف والطاء ، والطاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقق .

وماذا نقول عن فقدان الإعراب في العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، واطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما ازل الله بها من سلطان .  
وانظر مثلاً إلى قول المصريين العوام : جم - جه -  
بكام؟ معاك؟

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وترافق كانت قدية في giohona ، أو مستحدثة يبتكرنها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها في ابراز المعنى ، أو في تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

### 3 - اللغة والنظم الاجتماعية :

تأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التي تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والدين ، فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات ، والتعبيرات تتشهي مع شكل النظام السياسي ، والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففي مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطي أو النظام القطاعي ، أو النظام الشيعي ، ولكل طريقة التي تظهر في أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، وال المجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذي تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة في مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافاً واضحاً ، في كل من الفترتين ، فالنظرية إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوماً جديداً في الاستعمال .

ونلاحظ في أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التي تكون عليها تلك الشعوب ، من

الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التي تسلك مسالكها ، فلاتزال الكنيسة تستخدم التعبير القبطية التي يرددوها بعضهم دون فهم<sup>(22)</sup> .

ولاشك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأسلوب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التي يلتجأون إليها ، فلهم عرفهم في الاستعمالات اللغوية ويعkin ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضاً يغير من الفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

#### 4 - اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة ، تعيش في المدن ، والقري ، وفيها الزراع والصناع والارستقراطيون ، والفقراء ومتوسط الحال وفيها الأمراء والعلماء والمنتفعون ، كالطبيب والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، في نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعي ، ولذا تستخدم اللغة استخداماً مستمراً من البيئة والأعمال التي تراوحتها .

وعندها هذه اللهجات ذوات الطابع التميزة بـ(اللهجات الطائفية) أو (الطبقية) أو (الاجتماعية) ، كما يسمى علماء اللغة<sup>(23)</sup> .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة ، المستمدّة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

في (التوائية) – وهي لغة شعب زراعي – خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلها منها تقال عن شيءٍ خاص . بالأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق

أعماهم ، وتتحول معاني الكلمات (العمل – العامل – الفلاح) من الصفة التي كانت تلاحقها في الماضي بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى واحترامه<sup>(24)</sup> .

وللدين كذلك أثره الفعال في اللغة ، فال المجتمع في طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكاً لغويَا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها ، وتركيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولتنظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلوة ، والخطب الدينية ، وطرائق المذايحة النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذي يلجم إلى طرق خاصة في الاقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية ، التي تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من أيامهم بحالاتهم ، ويحيطونها بها لات الإكبار الذي يبعث من الاحساس الديني كأساليب القسم وتعويذ الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأساليب الشعيبة المستمدّة من الدين مثل (اسم الله عليك – باسم النبي حرسك) . ولو تبع الباحث اللغوي تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قد يعا حّي العصر الحديث ، لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوي الذي يبعث من مشاعر دينية ، لاسيما ونحن نعلم أثر الدين في التفوس .

ولو درس الأسلوب القرآني دراسة فاحصة ، لأمكن ادراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التي يتحجّها .

ونلمس في لغة الأساليب الدينية ، ميلاً إلى الإيقاعات الصوتية كالسجع ، والفوائل وتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامي إلى غيره من الأديان

(21) د. السعراي : اللغة والمجتمع ص 74 – 94 بتفصيل أكثر.

(22) فندريس : اللغة 314 – 315 .

(23) د. السعراي : اللغة والمجتمع ص 60 ، د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظمها الاجتماعي . يقول فندرис - عن اللهجات الاستقرطاطية الفرنسية - (في كل العهود التي كونت فيها الاستقرطاطية طقة مغلقة ، تحيى حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وإن استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم عبارتهم ، وحمل أشهئ إلى النفس) <sup>(26)</sup> .

وللطبقات الاستقرطاطية في مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم - أحياناً - على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وترابيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقي ، والمدن <sup>(27)</sup> . والطبقات الفقيرة والوسطى أكثر استقراراً أو اعتدلاً في استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائي ينطلقهم إلى مستوى مادي أعلى ، فيحاولون بمحاراة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك في المسكن والملابس ، وغيرها من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم بمحاراة تلك الطبقة في لهجتها ، فإن صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى <sup>(28)</sup> .

وللطبقات الخارجية على نظام المجتمع - كاللصوص ، والجرمين ، والأشقياء - لهجات تستخدم طرائق معينة في استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معانٍ مجازية أو استعارتها لدلائل بعيدة عن مفهومها الأصلي ، أو خلق وابتکار مفردات وعبارات جديدة ، لفاهيم يصطدرون عليها ، وربما يلجأوا إليها لاحفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، «في أمريكا» - مثلاً - يسمى . اللصوص

وشعر الإنسان - وفيها دلالة على (المبق) أو (الأبلق) عدد من الكلمات يقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوماً اخلاقيين في تربية الحيوان <sup>(24)</sup> . وللزراعة - في مصر - لهجاتهم الخاصة التي تختلف باختلاف المناطق التي يعيشون فيها .

ويبدو ذلك في مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوي ، ولعل في هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكّد هذه الحقيقة ، في بعض المناطق يقولون : (أردب ما هو لك ما تحضر كيله تعفر دنقك ويلزمك شيله) .

ولكل حرقه أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فالحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع ذوي الحرف لهجات متعددة في كلماتها ، وعباراتها . وتشتمل لهجات هؤلاء وأوائل على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة أو أجنبية .

في مجال الزراعة تختلف العامية المصرية - من اللغة القبطية - بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفي العامية العراقية كثير من الكلمات البabilية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفي مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة بعد التطور الصناعي العالمي ، وقد دخل اللغة العربية كثيراً من الألفاظ الانجليزية ، والإيطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالمهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية <sup>(25)</sup> .

وللطبقات الاستقرطاطية ، والفقيرة ، والوسطى ، لهجاتها التي تبئ عن مكانها الاجتماعية ، وأوضاعها

(24) فندريس : اللغة ص 286.

(25) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 105 - 108 بتصريف . وانظر : اللغة ص 283 وما بعدها .

(26) فندريس : اللغة ص 287.

(27) انظر إلى استعراهم : انارب مكان حالم - السير مكان الصبر - زالم مكان شكرأ ونحو ذلك .

(28) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 50.

وحلّة (القاضي) فهذا يستعملان في تسيب حيّلاتها أو في تحريّرها لغة بعيدة جداً عن اللغة الجاربة<sup>(٣٣)</sup>. ولغة المحاكم - بعامة - من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اخذه له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئاً منها<sup>(٣٤)</sup>.

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طيبة ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

ويسمى علماء اللغة هذه اللهجات باسم اللهجات الفنية ، ففي كل فن علمي تستخدم كلمات اللغة العادية في معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة ، حين يتكلمون عن الكتلة أو (السرعة) أو (القوية) وأحياناً تختلط كلمات خاصة .

«واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها ، في الاستعمال الجاري ، ولكنها أيضاً ترجع إلى الحاجة للدلالة (بصورة علمية) أي بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبّر عنه اللغة العادية تعبيراً جيداً»<sup>(٣٥)</sup>.

ولرجال الأدب من شراء ، وقصاصن لهجة ذات خصائص ، والأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه ، وحساباته من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفي الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات<sup>(٣٦)</sup>.

وللصحافة طجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية في فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة

(الجواهر) باسم (الجليد) والجواهر المسروقة (الجليد الساخن)»<sup>(٢٩)</sup> :

ولذا تسمى لهجتهم بـ(اللهجة السرية) أو (الكلام السري)<sup>(٣٠)</sup>.

وقد فطن الجاحظ إلى همجات الطبقات الدنيا في أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحталين ، ولا سيما جاء في كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تخاف حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب في الموضوع رسالة أسمها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب في مظان عدة<sup>(٣١)</sup>.

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي البنيوي مسرور بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة السياسية ، واختار منها أبو منصور الشعالي قدراً لا يأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسللين<sup>(٣٢)</sup>.

وللعلماء والمثقفين - على اختلاف طبقاتهم ومناجي تعليمهم - من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافي والعلمي .

وبين هجة التكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافي ، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة ، وحيثياتهم التي يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم<sup>(٣٣)</sup> ومثال ذلك حالة (المحضر)

(29) نفسه ص 61.

(30) فندرس : اللغة ص 314 ، 316 ، 320.

(31) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112.

(32) التعالي بيتمة الدهر ط 1353 هـ - 1934 م ، ج 3 ، ص 332 ، 333.

ود. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 - 114.

(33) فندرس : اللغة ص 314.

(34) نفسه ص 315.

(35) نفسه ص 315.

(36) نفسه ص 340.

كما أن طريقة الأداء الصوتي مختلفة بين الريف والحضر ، بشئ الطبقات ، – ويمكن – من خلال الاتجاه الصوتي العرف على طبقة المتكلم الاجتماعية.

«العامية الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تتعوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكون للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية»<sup>(38)</sup>.

وفي العامية الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عدداً محدوداً من المتكلمين كلهم ممهد الذهن لفهمه ، وكلهم تفاهم معه ، مقدماً ، ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي يجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون<sup>(39)</sup>.

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات ، هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائهم (ياولد – ياول – يواد).

وغمي عن البيان أن الاختصار في استعمال أصوات الكلمات يتم اعتماده على فهم أرباب الطبقة التي منها المتكلم.

2) تسوير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالاً مجازياً.

فالكلمات العامة (مشغل – عمل – صنعة – تصنيف – عملية) تتحذ بالضرورة معنىًّا خاصاً في أفواه الذين يستعملونها وفقاً لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامية الخاصة<sup>(40)</sup>.

الأدية ان قليلاً وان كثيراً) على حين أن الصحف الكبيرة تستخدم اللغة التي يستعملها خير كتابنا<sup>(37)</sup>.

ومعظم الصحف والمجلات المصرية – الآن – وان اصطنعت العربية الفصحى صورة فانها تختلفها مضموناً بادخالها كثيراً من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهي – بذلك – لها لهجتها الخاصة التي تخاطب الجماهير الشعبية.

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة ، في المجتمعات التي تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر. وكلما ازدادت البعد ، والاتصال بين الجنسين أدى ذلك إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منها.

أما في المجتمعات التي تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينها ، ولا يكون لها مظاهر إلا في اختلاف يسير في بعض الأصوات والمفردات والتراكيب كما يشاهد في معظم مناطق مصر الحديثة. وهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة ، تشتهر فيها جميعاً ، فهي :

1) تشوّه أصوات بعض الكلمات ، وقوانيئها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتي في نطق الكلمات. فقد يقع للعامية الخاصة أن تبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها.

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية ، والمدنية للأفعال (قال – جاء – يقدر) فينطقها بعض الريفين (جال – ايجي – يقدر) وفي المدن والقرى المتأثرة بها (آل – جه – بادر).

وهذا في الحالتين تشوّه لأصوات ، وبنية بعض الكلمات.

(37) نفسه ص 345 : 346

(38) نفسه ص 317

(39) نفسه ص 319 : 320

(40) نفسه ص 317 : 318

واللهجات الخاصة لا يفصل بعضها عن بعض ، انفصلا تماما فالطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ «تنوع اللغات (اللهجات) يرجع إلى تعدد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد مخصوصا في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها»<sup>(٤٤)</sup> .

ولا تكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المتركة يؤدي إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ، وألأحدهما منه تختلف عن منه الآخر ، فتحيل لهجة كل منها إلى طائفته التي يتسمى إليها ، وتذهب عوامل الفرق بين لسانيهما إلا أنها يتغلبان عليها ، بلقائهما اليومي ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر في حياته ، أو أدى حدث ما إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منها لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى<sup>(٤٥)</sup> .

فاللهجات الطائفية تتدخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لاحدي اللهجات أن تفصل عن الأخرى – لعوامل تدعو إلى ذلك فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها (ولذلك كانت في فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السريعة لمجتمعات المتصوفين ، والرهبان ، وهجات المحاربين ، واللصوص ، ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذي اشتبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن في الجلترا ، فلهجات اللصوص . وقطع الطريق ، والمحاربين الانجليز من أشد اللهجات بعيدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية)<sup>(٤٦)</sup> .

والاستعارات ، والتقلل في العامية الخاصة تبل بسرعة ، وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة ، واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذا أن تستملك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى»<sup>(٤١)</sup> .

3) تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمواد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ، ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمتها الأقطار المجاورة (فالعامية الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد : عربية ، والمانية) وغيرها<sup>(٤٢)</sup> .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمددة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفية التي تتطلبها .

4) قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب وهو أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويزدكون أن فرجليوس مارو التحوي الذي عاش – على ما يظهر – في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ، ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الإيرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية ، بأنواع من تضييف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، وبمضي الزمن تحورت ، وتمحضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة احتللت فيها – على غير قاعدة – كلمات مستعارة . من اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية أحتملها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة<sup>(٤٣)</sup> .

(41) نفسه ص 317 . 318 .

(42) نفسه ص 318 .

(43) نفسه ص 319 – 321 .

(44) نفسه ص 306 . 307 .

(45) نفسه ص 307 .

(46) د. رافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

منها . كالموت ، والأمراض الخبيثة ، والجن ، والشياطين ، وجهة اليسار ، والشر ، فيلجاً عند ذكرها إلى التستر والغموض .

ويتحدث الناس في الأمور المتصلة بعالم الغيب بعبارات خاصة جرت العادة باستعمالها .

ويلجاً المجتمع في التعبير عن الأمور المتنوعة ، أو التي تدعو إلى القلق إلى استعارة كلمات من الخارج ، أو إلى المجاز ، أو استبدال كلمة مكان أخرى ، وتشويه بعض الكلمات أحياناً ، وتعديل عناصرها صوتياً .

فكلمة *pissoir* (مكان البول) في الألمانية أقل منها جرحاً للآذان في الفرنسية ، لأن استعارة الكلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذي يعبر بها عنه ، فهي تلعب دور الكتابة<sup>(45)</sup> .

وكلمات (كيانية - تواليت - دورة المياه) - عندنا - حلت محل الكلمة (مرحاض) وكان الاستعارة من اللغات الأجنبية ، أو استبدال الكلمة بأخرى تجعلها أكثر مراعاة للمبادرة .

(وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال الكلمة (عملية) *operation* التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة ، لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات المرعبة والملابس الملوثة بالدماء ، والجسم وقد طواه الألم طيماً ، فكلمة (عملية) ضحية الصور التي تثيرها لذلك يسود الملل إلى الاستعاضة عنها بكلمة *intervention* (تدخل) لأنها أنصر جدة منها ، وأكثر تحفظاً وأشد غموضاً ، أيضاً ، لا يلعن لسماعها قلب المريض ، والكتابية ليست إلا صورة مهدبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات)<sup>(50)</sup> .

ولما كانت أسماء المثالب والعادات معرضة للنبي بشكل خاص ، فلا ينبغي أن نندهش حين نرى الجرمانية

وهذه اللهجات الاجتماعية ، لا يتميز بعضها من بعض إلا في المدن الكبرى حيث تعدد الوظائف ، ويكثر الناس ، وتتنازع الطبقات ، كنيويورك ولندن ، وبغداد - في عصر العباسين ، والقاهرة - في العصر الحديث . (ويوجد داخل باريس عدد من اللغات (لهجات) المختلفة ، تسير كلها جنباً إلى جنب ، فلغة الصالونات مثلاً ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ، وهناك رطانة المحاكم ، والعامة الخاصة التي تتكلم في حواشي المدينة ، وهذه اللغات مختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان أحدها دون أن يفهم الأخرى<sup>(46)</sup> .

واللهجات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي ، ولكنها تقوم دائماً على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها<sup>(47)</sup> .

## 5 - العرف واللياقة اللغوية :

في كل مجتمع أمور يعبّر التصريح بها ، أو التحدث عنها ، أحياناً بين الكبار ، وأخرى بين الصغار ، وما يباح البعض الكبار في موقف قد لا يباح لهم في موقف آخر . ولكل من الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، وجماعة الذكور وجماعة الإناث كلام لا يباح للآخر ، ولا يليق به .

وبعض الكلام لا يليق الفوه به في العرف الاجتماعي ، كالشتائم وما يكون لدى بعض الناس من عاهات ، وكل ما هو جارح للإحساس ، والآداب العامة ، ويستعراض في اللغات عن الكلمات الحارحة بأخرى تخفف من حدتها .

ويكره المجتمع التحدث عن بعض الأمور التي يتشاءم

(47) فنديس : اللغة ص 306 .

(48) نفسه ص 320 .

(49) نفسه ص 280 .

(50) نفسه ص 281 .

ويكتن عن الحصبة في العامية المصرية بـ(المبروكه).  
ويعرض الناس - عادة - عن ذكر الأمراض الخبيثة ، كالسل والسرطان ويدخلون في كلامهم عبارات لازالة مفهومها القاسي مثل : ربنا يكفينا شره - والعياذ بالله - الخ ويستعذون بالله من الأرواح الشريرة<sup>(٤٤)</sup>.  
وجهة اليسار جهة يتسام منها ، وكأنها جهة القوى الخفية ، التي لا يراد اباظتها (لذلك كثيراً ما قضي بالتحرم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحرم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار)<sup>(٤٥)</sup>.

وهناك الأمور الغبية ، والعالم غير المنظور الذي يقتضي عبارات خاصة (فالرقي السحرية التي نظر إليها في قبور اليونان ، وابطاليا ، وافريقيا مكتوبة على الواح من الرصاص ، تطبق في غالب الأحيان ، هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية ، أو تشويه الكلمات الأهلية ، ولكن الباعث هنا مختلف ، إذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون في تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة<sup>(٤٦)</sup>.

تشتق من أصل واحد ، يدل على عاهة جسمانية ثلاثة كلمات مختلفة (تدل على الصمم ، والبكم ، والجهاة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية<sup>(٤٧)</sup>.

(وترى الشتائم في كثير من اللغات ، تصاب بشيء من الشوه ، المقصود ، الذي يمكن من ادخالها في أرقى الأوساط)<sup>(٤٨)</sup>.

ونحن نقول في عامتنا : (يا نهار أحوس - يا خراشي - يخيشك) بدلاً من (يا نهار أسود - يا خراي - يخيك) كل ذلك للتخفيف من حدتها.

أما موضوعات الششؤم كالموت ، والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فتلحظ المجاز ، والكتابة عنها ، واستعمال عبارات تشير إلى الخوف أو تقلب معناها إلى ما يتمنى من الخير.

المموت - في أكثر اللغات - يكنى عنه بالذهب ، وفي العربية تستعمل لفظة (الوفاة) وهي مشتقة من (الوفاء) أي رد ما يستحق الآخرون عند الإنسان ويعبر عنه عبارات كثيرة مثل : أفلت شمه ، صعد إلى بارئه<sup>(٤٩)</sup> ، لَّئِي داعي ربه.

(51) نفسه ص 282.

(52) نفسه

(53) جبرين : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 184 ، 185 ، وانظر : فندرис : اللغة ص 28 ، د. السرعان : اللغة والمجتمع ص 130.

(54) د. السرعان : اللغة والمجتمع ص 131.

(55) فندرис : اللغة ص 281.

(56) نفسه ص 321 ، وانظر أيضاً ص 322 - 325.

## المنافسة بين اللهجات واللغات

تفوق لهجة على أخرى ، وهي تعود – في بعضها – إلى الثقافة والحضارة ، والفوذ والسلطان ، وعدد الناطقين ونحو ذلك .

إذا انفرد أحدهما بمزية ، بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات فوذ سياسي أو تجاري أو ديني واسع أو أكثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على اختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى .

وقد حدث هذا كثيراً في التاريخ . اللغوي .

فاللاتينية التي صارت لغة إيطاليا المشتركة ، وأخيراً لغة العالم الغربي بأسره ، كانت لغة روما أولاً وقبل كل شيء أي لغة المدينة في مقابلة لغة الريف المجاور ، واللهجات القاصية على السواء<sup>(١)</sup> .

واللهجة الباريسية ، أصبحت لغة فرنسا ، بفضلها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهي البرجوازية .. وقد استقرت في القرن التاسع عشر ، وسلم بها القصر ، ثم الأقاليم ، والكتاب الكبير باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً ، وعلى استمرارها لذلك لا تكاد تحس فيها أثراً للهجات)<sup>(٢)</sup> .

وهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية<sup>(٣)</sup> .

وهجة فلورنسا (في إيطاليا) – لهجة المجتمع الراقي بهذه المدينة – هي التي صارت لغة إيطاليا<sup>(٤)</sup> .

### ١ - المنافسة بين اللهجات :

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم بعض ، أفراداً ، وجماعات ، وأئمـاً . وهذا الاتصال آثاره اللغوية ، فاللهجات واللغات تلك الجماعات والأمم تتلاقي ، ويستفيد بعضها من بعض .

والتأثير الذي يعتري لهجات اللغة الواحدة ، قد يبدو عادياً حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرة ، كلّ لهجات القرى والمدن ، في أيام دولـة ، فلكل منها سمات تمتاز بها عن الأخرى ، وبينها اشتراك في مظاهر كثيرة ، تستمدـها من اللغة العامة ، ولذا لا تستعصي أحدهما على الفهم خارج حدودها ، اللهم إلا في حالات العزلة التي تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التي تفصلـها عن بعضها عن بعض ظروف جغرافية واجتماعية ، فإنـها تؤدي إلى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها ، وقد تستعصي على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة .

وحين تتجاوز اللهجات الخاصة في المدن الكبـيرـة ، والقرى المجاورة لها ، تزيد درجات التأثير ، فـفي داخل المدن يـكثر الاختلاط بين الطبقـات ، وـتحاول الأدنـى تقليـدـ الأرقـى ، ومع ذلك تـبقى لكـلـ لهـجةـ خـصـائـصـهاـ المـيـزةـ .

وسـكانـ القرـىـ المجـاـورـةـ للمـدنـ يـحاـولـونـ التـخلـيـ عنـ خـصـائـصـ لهـجـاتـهمـ وـتقـليـدـ لهـجـاتـ المـدـنـ ، لأنـ حـضـارـةـ أـهـلـ المـدـنـ ، وـثقـافـةـهـمـ تـجـعـلـ الرـغـبـةـ فيـ تقـليـدـهـمـ مـلـحةـ لـدـيـ الـرـيفـيـنـ .

وقد أجريت بحوث في هذا الحقل أوضحت عوامل

(١) قندريس : اللغة ص 329.

(٢) نفسه ص 330.

(٣) نفسه ص 335.

(٤) نفسه ص 325.

قرونا ولايات مستقلة سياسياً وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة<sup>(7)</sup>.

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية في عامية متعلمي الألمان ، حتى في أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوروبية<sup>(8)</sup>. ولذا قام انتشار اللغة الألمانية المشتركة فيها على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية ، فالألمانية المشتركة أولاً وقبل كل شيء لغة كتابة تدين بمناجحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة في الاستعمار ، وكانت هناك حركة مارتن لوثر ، وترجمته للكتاب المقدس ، وهناك لغة المستشاريات في المدن والأماربات الألمانية ، والالمانية كانت تختل الأرضي السلافية قديماً يخدم ، وتحتل محل اللغات السلافية ف تكونت الألمانية المشتركة ، في مدن الاستعمار في ألمانيا الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الاصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة ، وصارت لغة الكتابة في ألمانيا المثقفة بأسرها<sup>(9)</sup>.

## 2 - العامل الاجتماعي والاقتصادي :

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب ، والمصاهرة ، ويلتقون للتجارة ، وتبادل المنافع في شئ الحالات ، وقد تتشعب بينهم المنازعات وهذا يؤدي إلى اختلاطهم ، وقوة الاتصال بينهم ، ولذلك أثره في التقارب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التي تفرد بها كل لهجة.

ومن الأمثلة التي توضح اثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد – في لغة عامة – قبل الإسلام بحوالي قرن ونصف أو قرنين من الزمان لما كان بين أهلها العرب من ارتباط في النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة ، والجوار ، والتعامل التجاري وغيره من الصلات الاجتماعية.

ولمجة فريش تغلبت علىسائر لهجات الجزيرة العربية ، قبل الإسلام لتحقيق النفوذ السياسي ، والاقتصادي ، والديني لها.

ويكفي أن تنشأ على اثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة ، وما بيته من خصائص اللهجات الأخرى المندرحة.

وهذا التوحد اللغوي يخضع لعوامل كثيرة أهمها :

### 1) العامل السياسي :

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسي واحد ، يؤدي إلى تقارب لهجاتها ، ثم توحدها في لغة عامة ، فالسلطة والحكام يجردون أحاديثهم العامة في مختلف المناطق من المظاهر الصوتية ، والوصفية ، والمعجمية ، وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة ، أو طائفة حرفية ، حتى ولو كان الحاكم من أبنائها ، ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوماً لدى كل الطبقات الاجتماعية .

وتلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محطة أنظار قاطني المناطق الأخرى ، فيحاولون تقليد لهجتها ، والتخلص عن ما تفرد به لهجاتهم الأصلية .

ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية .

ويمكن أن تمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية ، التي كانت لهجة باريس ، ثم انتشرت في جميع البلاد الداخلية في المجال السياسي الفرنسي ، واللاتينية صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيراً لغة العالم الغربي بأسره<sup>(5)</sup> . تبعاً للنظام السياسي ، وذلك في الإمبراطورية الرومانية القديمة<sup>(6)</sup> .

وعدم خضوع الدولة لنظام سياسي واحد يضع الصعوبات في طريق التوحد اللغوي (ألمانيا التي ظلت

(5) نفسه ص 329.

(6) د. السرعان : اللغة والمجتمع ص 174.

(7) فندرس : اللغة ص 333 ، 334.

### 3 - العامل الأدبي :

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوي ، فالأدباء من قصاص ، وشعراء يكتبون أدبهم بلغة يفهمها جميع الشعب – ب مختلف طبقاته ليروج ويذيع ، وتلك اللغة التي يكتبون بها تخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية ، لأي إقليم من أقاليم الدولة ، وهذا يعني ، سهل التوحد للهجات الجماعات المتعددة .

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر الذي غصت به الأسواق الأدية ، كعكاظ ، والمريد ، وذى المجاز ، وكم جرى التنافس والمنافسة بين الشعراء ، في هذه الأسواق ، ليحكم لهذا بالتفوق على ذاك ، وكانت تلك الأشعار مصدر امتع للجماهير العربية ، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا ، قامت على أساس اللهجة القرشية ، وما استفادته من غيرها من مخاسن اللهجات الأخرى .

وفي أوروبا (توجد لهجات مشتركة من أصل إدبي محض ، مثل الإيطالية ، التي استقرت لغة مشتركة ، ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظيم ، وتأثيرهم مثل : دانتي وبترارك وبوكاشيو ، وذلك في وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية ، وأغلبظن أن هؤلاء الكتاب ، استعملوا اللغة التي كانت تتكلّم حوالهم ... واللغة التي رفعها دانتي إلى مرتبة اللغة الأدية ، والتي صارت لغة إيطاليا المشتركة كانت أولاً وقبل كل شيء لغة مدينة هي فلورنسا ولغة المجتمع الراقي في هذه المدينة) (٨) .

### 4 - وسائل الإعلام :

لوسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزيون ، دور الخيانة (السينما) والمسارح ، والصحافة وغيرها أثراها في التوحد اللغوي ، فهي لسان حال الأمة ، والمعبر عن أغراضها السياسية والاجتماعية ، وهي تستخدم لغة أشبه بأن تكون عامة فيما يسمع أو يكتب على سواء ، في الأقطار العربية .

(8) نفسه ص 335 .

(9) نفسه ص 328 ، 329 .

– مثلاً – تستخدم الفصحى ، وبعض الأساليب العالمية التي يفهمها الجميع .

وتلك الوسائل – بلا شك – لها خطأها في التأثير على الناس ، وتكوين لغة عامة .

### 5 - المدن الكبرى :

للمدن الكبرى أثراها في نشوء لغة مشتركة ، إذ تتطلع إليها أنظار سكان الأماكن المجاورة لها ، والبعيدة عنها ، فيكثر القادمون إليها من كل صوب ، وهم – حين يتلقون داخل تلك المدن – يحاولون – عادة – التخلّي عن سمات لهجاتهم الأصلية ، ويميلون إلى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم يتلقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا إلى أي حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الجميع .

فالدور الأساسي الذي آلت إلى أثينا بعد سقوط الامبراطورية الفارسية أدى إلى ظهور لغة مشتركة مستمدّة من اللهجة الاتيكية ، ولكن زاد من قوة الاتيكية ، وشعاعها ، شهرة شعرائها وفنانيها ، فكان لأنثينا – بوصفها مركزاً سياسياً وأديرياً وفنياً على السواء –، شرف تأسيس اللغة المشتركة التي ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، حتى القرن التاسع بعد الميلاد أدلة للتفكير عند جميع الأغريقين (٩) .

ولقد تكونت الإنجليزية المشتركة في مدينة لندن التي ساعد موقعها على أن تكون ملتقىً مختلف اللهجات (إذ أن تكون اللغة المشتركة صادف وقوعه فترة بنو لندن المفاجئ ، حيث أخذت تتالي بين أحضانها طوائف المهاجرين ، على اختلافهم ، يهدون عليها من كل الأقاليم ويمتّجون بالسكان السابقين ، هذه المجرات أدت إلى شحن اللغة المشتركة بأثار اللهجات ، حتى لتجد نطق الإنجليزية في القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وأنه يشتمل على عدد كبير من وجوه الخلاف ، ولازال بقايا منه موجودة حتى اليوم ، ولكن هذه المجرة الإقليمية

الفصحي التي تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المشتركة فيه.

ولا تنسى أن نشير إلى أن اللغة المشتركة التي تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها ، لا تخلص نهايًا من خصائص اللهجات المحلية ، بل تبدو آثارها فيها ، وتعكس عليها.

ويتجلى هذا الأثر واضحًا ، في العربية الفصحى المعاصرة ، واللهجات العامية المتفرعة عنها.

وقد أشرنا من قبل إلى ما تحويه اللهجات المشتركة في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التي شاركت فيها.

## 2 - المنافسة بين اللغات :

يتحقق ذلك في السلم ، وال الحرب .

### في السلم :

تتوطد العلاقات بين الشعوب ، للحاجات الاجتماعية المتعددة ، في نواحي الاقتصاد ، والثقافة ، والعلوم ، وغيرها من المجالات ، فيجري بينها التعاون الزراعي ، والصناعي ، والعلمي ، ونقل المخترعات ، والمستحدثات . وهذا التعاون المتعدد النواحي ، يقتضي لقاءات متعددة بين أفراد ، وجماعات من تلك الشعوب ، وهذا يؤدي إلى احتكاك لقائهم ، وتبادلها التأثير والتاثير.

فقد استبدلت العربية من الفارسية بعض المفردات والأساليب ، المتعلقة بظاهر الحضارة ، والأشياء التي لم تكن موجودة عند العرب ، ومن اليونانية بعض مصطلحات الفلسفة والعلوم .

كما أخذت الفارسية من العربية بعض المصطلحات العلمية والدينية ، وقد استمدت الإسبانية من العربية كثيراً من المفردات ، بسبب اقامة العرب هناك بعد الفتح الإسلامي ، للأندلس أحقياً طويلاً<sup>(12)</sup> .

انعشت تبادل السكان بين العاصمة ، والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذي أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة ، وإذا فانجليزنا تدين أيضاً بتوحيد لغتها توحيداً نسبياً إلى أهمية عاصمتها<sup>(10)</sup> .

وفي مدينة القاهرة ، تترافق اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية ب اللقاءات أصحابها ، ولذا تميل إلى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع .

## 6 - الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية :

فالدين يجمع الناس حول كتاب واحد يقرءونه ، ويتبعدون به ، ويطبقون أحكامه ، ويدعوهם إلى الاجتماعات العامة في الصلوات ، والأعياد والمحج وغيرها ولذلك أثره الكبير في التوحد اللغوي .

ولاشك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية ، تؤدي دورها في اختيار لغة عامة .

فدور العلم والثقافة ، وطلابها الذين يفتدون من مختلف الأقاليم ويلتقون في المدارس والجامعات ، وقصور الثقافة ، والمكتبات وما شاكلها ولقاءات الكتاب العسكرية ، كل ذلك له أثره في تبني هذه الطوائف عملاً يفهم من لهجات ، ويتوجهون بذلك إلى لغة عامة .

وقد حاول تيمورلنك أن يصنع لغة لجيشه تسهل مهمة قواه ومع فشل تلك المحاولة فإنها تدل على احتياج الجيوش إلى نظام لغوي مفهوم لدى أوساطها المتباينة<sup>(11)</sup> .

وفي إطار هذه الأسباب الداعية إلى توحد النظام اللغوي ، فإن العالم العربي قد توفرت له علاقات كثيرة اجتماعية ودينية وسياسية وأدبية وثقافية ، وربطت بين أرجائه ، الإذاعة والتليفزيون ، الصحافة ، وسائل المواصلات ، فبرزت لغة مشتركة تمثل في العربية

(10) نفسه ص 331 ، 332 .

(11) د. نجا : اللهجات العربية ص 24 - 26 وانظر د. العران ص 172 .

(12) انظر اللغة والمجتمع د. العران ص 177 .

وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنسا الخ» وقضت على هجاتها الأولى<sup>(15)</sup>.

والفرنسية تغلبت على هجات المناطق المجاورة لها في بلجيكا وسويسرا وهكذا فالمنطقة التي توجد فيها العاصمة تغلب على البلاد المجاورة لها ، فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في القسم الذي يتحدث الفرنسي في مقاطعة (والونيا) وليغز تلك المقاطعة بالتفوز والسلطان تغلبت اللغة الفرنسية على القلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا)<sup>(16)</sup>.

والفرنسية في مقاطعة بريتانيا تغلبت على اللغة البريطانية شيئاً فشيئاً ، إذ شاركت في كل نواحي الحياة ، الدينية ، والخدمة العسكرية ، والتعليم ، في المدارس ، والنواحي الاقتصادية ، ولا يمكن للبريتانية أن تساوي الفرنسي في القوة ، والثقافة ، والحضارة ، ولذا يمكن التنبؤ باندثار البريتانية ولكن بذلك يتوقف على تمكّن البريتانيين بلغتهم ، وتعصيهم لها ، وعلى كثرة عدد المتكلمين بها<sup>(17)</sup>.

أما إذا كان الأمر بالعكس ، بأن تفوق الشعب المتنقل إليه نفوذ أو سلطاناً أدى ذلك إلى خضوع المهاجرين ، وربما تلاشى لسامهم الأصلي ، في غمار لغة هذا الشعب الجديد (ففي مستعمرة الكاب كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت في سنة 1688 يكونون ربع سكان المستعمرة ، ولما كانت المولندية وحدتها هي اللغة المسروحة بها في الأمور العامة ، والسياسية ، والدينية ، فقد اختفت الفرنسية بعد مضي قرن واحد<sup>(18)</sup>.

ويذكر (بلومفيلد) أن الأسرات الأوروبية التي نزحت إلى أمريكا ، وأقامت بها إقامة دائمة لا تلبث طويلاً حتى

الفرنسية بعد مضي قرن واحد<sup>(18)</sup>.

(13) د. وافي : علم اللغة ص 232 ، وما تأخذه لغة عن أخرى ينفع للصلف ، والنهذب ، حتى يجري على طريقة اللغات المنقول إليها.

(14) د. السرعان : اللغة والمجتمع ص 178 ، 179.

(15) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 110.

(16) نفسه ص 112.

(17) فنديس : اللغة ص 352 – 355 بصرف.

(18) نفسه ص 350.

وكلمة الشاي قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر (ماليزيا) التي كانت المصدر الأول لهذه المادة ، وكذلك كلمة (الطباق) انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة السكان الأصليين لأمريكا<sup>(13)</sup>.

وفي اللغات الأوروبية كلمات مشتركة أصلها إيطالي أو ألماني أو إنجلزي منها أسماء وحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعها مثل : (أمبير) Ampere – (فولت Volt – أوم Ohm ) بل نجد كثيراً من الكلمات الأوروبية تنتشر في لغات غير أوروبية ، كأسماء بعض المخترعات ، والآلات مثل : راديو – تلفاز – تليفون – تليفزيون – سينا – فيلم – بيانو ... الخ<sup>(14)</sup>.

وقد يأخذ العلاقات الودية صوراً أخرى تدخل فيها اللغات في صراع عنيف ، ويتم ذلك بطرق أهمها : 1) أن تنتقل طائف من العلماء ، أو الصناع ، أو المثقفين ليشاركون في نهضة الحياة ، لدى شعب شقيق أو صديق .

2) أن تهاجر جماعات من شعب زاد نموه السكاني ، إلى شعب آخر جاوار .

وفي هاتين الحالتين يكون التأثير والتأثير عادياً ، كما ذكرنا من قبل .

وقد يأخذ هذا الاتصال طابع السيطرة ، والتفوز ، إذا كان المتنقلون أعلى سلطاناً ، أو حضارة ، من تزحوا إليهم ، أو زاد عددهم بدرجة كبيرة يجعل وجودهم يزداد قوة ، وثباتاً وتأثيراً فتطغى لغتهم ، وربما تغلب على اللغة التي تنافسها (فالألمانية امتدت على رقعة واسعة مما يجاورها من المناطق في أوروبا الوسطى) : «سويسرا

(13) د. وافي : علم اللغة ص 232 ، وما تأخذه لغة عن أخرى ينفع للصلف ، والنهذب ، حتى يجري على طريقة اللغات المنقول

(14) د. السرعان : اللغة والمجتمع ص 178 ، 179.

(15) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 110.

(16) نفسه ص 112.

(17) فنديس : اللغة ص 352 – 355 بصرف.

(18) نفسه ص 350.

ومن ذلك — أيضاً — سيادة الانجليزية في أمريكا الشمالية ، وسيادة الفرنسية في أنحاء كندا وفي جزر الجودالوب والمرتبينك وغيرها وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث حتى إذا كان الغزاة أقل عدداً بكثير بشرط أن يكون رقيم الحضاري والأداري والاقتصادي ساحقاً<sup>(21)</sup> .

ويذكر بلومفيلد أن قلة عدد الغزاة قد يؤدي إلى انتصار لغة المغلوبين عسكرياً وسياسياً ، فهو لا القلة من الغزاة يهضمون بعد زمن ما في البيئة الجديدة ، غير أنها بعد انتصارها تصبح متحدة بأثر ذلك الصراع المزير ، فلا تكاد اللغة الغازية تندثر أو تزول حتى تكون قد تركت في اللغة المغزوة جروحاً ، أو ندوياً هي في الحقيقة بعض الصفات التي استعارتها من لغة الغزاة.

ومن ذلك النورمانديون الفرنسيون حين غزوا الجزء البريطاني واستطاعت الانجليزية — في النهاية — أن تغير الفرنسية وتخل محلها ، بعدما أصاب الفرنسية تشوئ في صواتها ، وتجدد في بعض أساليبها<sup>(22)</sup> .

وقد تتكشّل لغة المغزوين وتتزوي في ناحية من ينتها وتحصّن فيها فتعيش اللعنان الغازية والمغزوة جنباً إلى جنب كما حدث لللغة الكلية بعد غزو الانجليز السكسون للجزر البريطانية ، فقد حلّت الانجليزية محل الكلية في بقاع كثيرة من تلك الجزيرة ولكن الكلية ظلت حتى الآن سائدة في بعض جهات (ويلز)<sup>(23)</sup> .

وقد يتمسّك المغلوب بلغته ، ويقف في وجه الغالب سداً منيعاً لا يتزحزح عنها ، فلا تتمكن لغة الغالب من السيطرة عليها.

فاتجاه الإيرلنديين إلى إحياء لغتهم الوطنية يعود — كما يقول فندريس — إلى بواعث سياسية ، وهي التخلص من لغة الانجليز أعدائهم التقليديين<sup>(24)</sup> .

تصطع لغة البيئة الجديدة مشوبة في أول الأمر بعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبها ، ثم لا يكاد يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم أو أحفادهم على اللغة الأمريكية ، ذلك لأنها تمثل — في نظر معظم المهاجرين — اللغة العليا ولأنها اللغة التي تقضي مصالحهم في البيئة الجديدة ، وتساعدهم على الاندماج . وتحسين أحوالهم اجتماعياً ، واقتصادياً<sup>(19)</sup> .

### وفي الحرب :

قد يغزو شعب شعب آخر غزواً عسكرياً ، فتدخل لغاتها في صراع يعتمد بينها أمداً طويلاً ، وهذا واضح في لغات الشعوب التي اشتراك في الحرب العالمية الأولى ، فقد استفاد بعضها من مفردات الأخرى ، نتيجة لطول الاشتراك ، والاتصال بينها.

ومن الممكن أن تنتصر أحدهما إذا تهيأت لها أسباب النصر :

1) فتنتصر لغة الغالبين إذا كانوا كثيري العدد ، أو كانت حضارتهم وثقافتهم أرقى من المغلوبين.

فتروح الغازي بأعداد كبيرة ، يؤدي إلى القضاء على طابع الشعب المغلوب وسماته ويصحب ذلك سلطان القوة ، التي تفرض لغة الغازي ، في تصريف شؤون الدولة ، والإدارة ، والعلوم ، والثقافة ، وهذا يؤدي إلى انكاش لغة الشعب الأصلي ، وتدحرها.

وإذا كانت حضارة الشعب الغازي أعلى ذلك إلى انصراف الشعب المقهور عن لغته ، وهجرها ، بتقليل اللغة الأرقى.

ومن ذلك أن اللغة العربية انتشرت أثر الفتوحات الواسعة في آسيا وأفريقيا ، وتغلبت على كثير من اللغات الأخرى ، كالقبطية . والبربرية .

(19) د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 100 ، 101 .

(20) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 128 ..

(22) د. أنيس : من أسرار اللغة ص 99 ، 100 .

(23) نفسه ص 100 .

(24) فندريس : اللغة ص 350 .

وكذلك التيار بعد اسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الاسلام  
وتعلموا اللغة العربية<sup>(27)</sup>.

وتنظر آثار المنافسة بين اللغتين المجاورتين ، أو  
المتصارعتين – عادة – في المفردات<sup>(28)</sup> وقد يحدث تأثير  
في النظام الصوقي والصرفي ، ونحن نعرف أنه كثيراً ما  
للحظ في لغات مختلفة أصلاً ومتجاورة جغرافياً وجود  
خصائص صوتية مشتركة وكذلك الحال بالنسبة للنظام  
الصرفي<sup>(29)</sup> فقد انتشرت بعض التواهي الصرفية من  
الفنلندية إلى اللغات الهندية الأوروبية الأخرى (السلافية  
والبلطية)<sup>(30)</sup>.

وقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك يتقلّب ترتيب  
الكلمات أحياناً من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها ،  
فالألمانية المساوية – مثلاً – تسير على حرية كبيرة في  
ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية<sup>(31)</sup> ،  
وقدان النبو نتيجة حتمية لصراع اللغات<sup>(32)</sup>.

وعندما يقضى على إحدى اللغات فإن الفاظاً كثيرة  
تعزّزاً من اللغة الغالبة وبينها كثير من التحريف في  
الفاظها الأخرى . ودلائلها ، ثم لا تثبت القواعد أن  
تغير شيئاً فشيئاً<sup>(33)</sup> .

وتترك اللغة المغلوبة آثارها على اللغة الغالبة ، وكلما  
طال أمد الصراع<sup>(34)</sup> وقوى كانت التشوّهات أكثر

ومثل ذلك ما حدث من تمسك الفرس بلغتهم ، إذ  
كان الفتح العربي قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس ،  
حتّى أصبح العلم والأدب والسياسة جمِيعاً لا تعرف تعبيراً  
غير العربية ، وتقلص ظلّ الفارسية ، فأصبحت رطانة  
للطبقة الدنيا من الفلاحين ، والرعاة ، وصغار التجار  
والصناع ، ولكن العصبية الشعوبية استيقظت منذ القرن  
الثالث الهجري ، وبدأت مع الدوليات الإسلامية  
الشعوبية التي قامَت في فارس حركة احياء وبعث اللغة  
الفارسية<sup>(25)</sup>.

2) أما إذا حدث العكس بأن كان المغزوون أكثر  
حضارة ، فإن لغتهم تبقى صاحبة السلطان ، وربما قهرت  
لغة الغزاة ، وصرعنها على ألسنة أهلها.

(إرادة الاغريق في لا يضحكوا بلغتهم أمام فاتح  
يمتحونه هي التي حفظت الاغريقية خلال العصور ، فلم  
 تستطع التركية يوماً أن تحل محلها ، أو حتّى أن تناول  
منها ، ... فالتركية وهي لغة الفاتحين ليست بأية حال من  
لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة  
الاغريقية ، التي تمثل ثقافة من أعرق الثقافات)<sup>(26)</sup>.

وكما حدث عندما هاجمت القبائل المبربرة أوربا  
اللاتينية ، التي كانت شعوبها أكثر تقدماً في الحضارة ،  
ولذا ترك هؤلاء البربر لغاتهم الأصلية ، بل تركوا أدبياتهم  
الوثنية واصطبنوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية ،

(25) د. حسن ظاظاً : اللسان والانسان ص 128 ، 129.

(26) فندريلس : اللغة ص 351.

(27) د. حسن ظاظاً : اللسان والانسان ص 127.

(28) فندريلس : اللغة ص 353.

بعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمة ، ومن الفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة كما حدث  
للرومانية حين قضت على معظم لغات أوروبا ، وللعربيّة حين قضت على القبطية في مصر ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق ،  
انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ص 100 وص 50 من هذا البحث ..

(29) فندريلس : اللغة ص 361 ، 364.

(30) نفسه 361 ، 364.

(31) نفسه 359.

(32) نفسه ص 363.

(33) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 100 وما بعدها.

(34) يحتاج الصراع إلى وقت طويل قد يبلغ أربعة قرون ، فالروماني تغلبوا على وسط أوروبا وشرقها في القرن الأول الميلادي ، ولم تصل =

جامعة انسانية ، ورأينا أنها تنشأ تلبية لاحتاجاتهم الاجتماعية ، ووفقاً لظروفهم ، فهي تمثلهم حضارياً وثقافياً وفكرياً ، ثم ان الفاظها العبرة عن مقصودهم ، تأخذ الطابع المميز لتلك الجماعة الإنسانية ، وتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعرض لهم من ظروف جديدة قد تطأ عليهم ، في انقساماتهم الاجتماعية داخل المنطقة التي يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصالهم بالشعوب الأخرى للتجارة أو الهجرة أو الحرب ، أو غيرها من وسائل الاتصال المتعددة ، ويمكن أن تبدو لذلك آثار بعيدة المدى في سلوك اللغة ، واتجاهاتها ، بين الجماعات الإنسانية المختلفة وتبدو ملاحظاتها في صور تعبير عن الجانب الاجتماعي ، وأثره في السلوك اللغوي ، وهي كما يلي :

### أولاً : اللغة صورة حياة الأمة :

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقاتها بالمجتمع الذي تعيش فيه ، بل هي صورة له ، نابضة بالحياة ، فإذا كان المجتمع متخلقاً ظهرت آثار التخلف في لغته ، فهي متخلقة معه ، وإذا كان مجتمعاً راقياً بذا الرقي في لغته كذلك ، فالشعوب البدائية يتكلمون لغة مادية لا تعرف الفكر ، أو المعاني الكلية ، إنها لا تعرف أكثر من المحسوس ، تعبر عنه ، فالهندي الأحمر في أمريكا لا يستطيع - في تعبير لغوي - أن يجد اسماً للشجرة ، دون أن يعرف لونها الأحمر ، أو الأسود ، في شجر معين كالبلوط . وبعض العثاثر البدائية لا تسعفها لغتها على التعبير ، فيلجأون إلى الإشارات بأيديهم ، وأرجلهم ، وأعينهم حتى إنهم إذا أرادوا التحدث ليلاً أوقدوا النار ، ليري المخاطب حركاتهم ، فيعرف ما يريدون ، وهذا اللون من اللغات يقل فيه التفريع اللغوي ، كالاشتقاق ، وغيره مما يعبر عن المعاني الجردية .

أما الشعوب الراقية ، ذوات الثقافة والفكر ، فتحمل لغاتها سمات حياتها العامة ، والخاصة ، كاللغات الهندية

لتفتح إلى الغلب النبائي إلا حوالي القرن الرابع الميلادي . والعربية لم تغلب على القبطية والبربرية إلا بعد أحقاب طويلة ، بل إنها بقيت مستعملة في أداء الطقوس الدينية . وبعض اللغات البربرية لازالت تستعمل حتى العصر الحاضر .

(35) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 97 - 110، د. السعريان : اللغة والمجتمع ص 179 - 181 .

عمقاً ، وظهوراً ، فقد ضاع من الانجليزية أكثر من نصف ثروتها اللغوية ، في صراعها الذي انتصرت فيه على النورماندية الغازية ، واستعادت عن هذا المفقود من اللغة الغازية المقهورة ، وأخذت منها كذلك مفردات جديدة ، ومع طول الصراع بين العربية ، والقبطية ، والبربرية ، لم تؤثر تلك اللغات في العربية تأثيراً قوياً ، لأن الصراع لم يكن شديداً ، ولم تكن هناك مقاومة تذكر من اللغات المغلوبة .

ويصل بعض اللغويين إلى القول بأن آثار الاحتكاك ، والصراع بين اللغات تظهر إذا كانت من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين ، أما إذا كانت غير مشتركة في الأصل ، فإن الآثار الناجمة عن الاحتكاك والصراع آثار محدودة ، لاسيما فيما يتعلق بالبنية ، ونادرًا ما تؤثر لغة أو تتغلب على أخرى ليست من فصيلتها<sup>(35)</sup> .

وبناءً على تجاذور اللغات وصراعها ، قد لا تبقى اللغة الواحدة على حالها بل تتغير ، وربما انقسمت إلى لهجات لاسع الرقعة التي تعيش عليها ، ولا تصالها بلغات أخرى أو انتصارها عليها ، واختلاف البيئات المكانية ، والزمانية ، والثقافات المتعددة ، التي تغلب عليها من الشعوب المتكلمة بها ، وانتقامهم من جيل إلى جيل ، كما حدث للعربية في نحو المتكلمين بها ، وتعليمهم على المناطق المجاورة في مصر والشام ، والعراق . وكما حدث للألمانية في امتدادها على مساحة واسعة في أوروبا الوسطى ، فكل ذلك أدى إلى تغلب تلك اللغات على لغات البلاد الأصلية ، ونجم عن تفرق العربية والألمانية إلى لهجات . وهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية منذ نشأتها إلى العصر الحاضر .

### تعليق :

عرضنا في كلامنا السابق صورة واقعية لما يعرض للغة

ثانياً : اللغة تتغير تبعاً لظواهر الاجتماع :  
للحظاير اللغوية وتغييرها أثر في مفردات اللغة ،  
وتراكيبياً .

### أ) أثراها في المفردات :

#### 1 - معانيها :

لا ريب أن كل جماعة انسانية تضع الكلمات للأغراض التي تزيد التعبير عنها ، فيوضع لفظ لمعنى ، أو عدة معانٍ . ويوضع غيره كذلك لمعانٍ أخرى ، وهكذا .  
وتبدأ اللغة بسيطة . ثم تتطور ، وتعمق ، فالمعروف أن الطفل عندما يريد أن يدل على حيوان يخاف منه فإنه يسميه (هو هو) أو (عو) أو نحو ذلك مما يطلقه عليه . ثم بعد أن يميز شيئاً فشيئاً يستطيع أن يفصل بعض المعاني عن غيرها . والمسمايات عن نظائرها . فيطلق لفظ المحدد على ما يريد بدقة . وهكذا . فالشعوب تطلق الألفاظ على ما تريده حسب طبيعتها . رقياً . وانحطاطاً . فالألفاظ البدائية محسوسة المعاني . والراقية ترقى معها الأفكار التي تحملها .  
وكلمة (الفرج) كانت لكل شق ، ثم خصصت في الإسلام بما هو معروف عند الإنسان ، واللمس كان معروفاً في اتصال شيء بأخر ثم كفي به الإسلام عن الجماع كقوله تعالى «أو لامست النساء» .

ومن هنا نلاحظ تطور المعنى تبعاً لتطور الحياة الاجتماعية ، ومتطلباتها .

#### 2 - أصواتها :

لا ريب أن الأصوات التي تتألف منها الألفاظ صورة لحياة الأمة ، فهي جافية غليظة ، في أمة خشنة ذات وعورة . تجرب حياتها الأولى . فثلا : حياة الصحراء تحتاج إلى الأصوات العالية . لأن الحفوت يضيع وسط هذا الدراج المائل . ولذا كانت خشونة الأصوات داعية لوصوتها إلى من يريد . وعلى هذا كان العرب الصحراويون يأتون إلى النبي ﷺ ، وينادونه بأصواتهم

والآورية ، واللغات السامية ، التي تستطيع أن تعبر في صور متعددة ، وعبارات لا تحتاج إلى الإشارات كتلك السابقة لها ، بل إن اللغة العربية تتجه إلى العقلية والخيال ، والتعبير عن الشيء منظوراً إليه من جهات متعددة .

فاللغة سجل يعي حضارة الأمة على مدى تاريخها الطويل ، ويمكن على هذا الأساس فهم طبيعة حياتها . ومعرفة الكثير عن وجودها الحضاري .

فالعربية – في أول حياتها – كانت تعيش حياة بدوية خالصة في صحراء الجزيرة . ولذا تحمل ألفاظها سمات تلك المرحلة ، فكلمة (القصاحة) أخذت – أساساً – من اللبن الفصيح – وهو الذي زال رغوه – وكلمة (البلاغة) أخذت من البلوغ إلى غاية المسير وكلمة (الجد) أخذت من امتلاء بطنه الدابة بالعلف ، وكلمة (القطار) كانت تطلق على عدد من الإبل تسير في نسق واحد .

إذا درست تلك الألفاظ ، وتطوراتها . وجدنا أن اللفظين الأولين (القصاحة والبلاغة) استعملما فيما بعد لحسن الكلام ، وجودته ، ثم استعملما مصطلحين لاجادة المنطق ، في علم البلاغة الذي ظهر بعد وضع قواعد اللغة ، وعکوف العلماء على دراستها ، في عصر يدل على نضج تفكير الأمة ، وادراكها لقيمة لغتها .

وبعد تحضر العرب نقلوا لفظ (الجد) من معناه القديم ، فأصبح يطلق على امتلاء جبة الشخص أو الجماعة بالمعنى البليء ، ولما تطورت الحياة عند العرب في العصور الحديثة ، واستخدمو الآلات الصناعية في نقل البضائع ، والأحياء من بني الإنسان ، وغيرهم من مكان إلى آخر نقلوا اسم آلة السفر التي كانت للصحراء – وهي (القطار) من الإبل – للقطار من العربات المعهود الآن .

فلو تبع الباحث اللغوي دلالات الألفاظ . واشتقاقاتها . وتراكيبياً اللغوية لعرف تطور الحياة . والفنون عند الجماعة الناطقة بها .

وهنالك أصوات تخفف حُقَّ تللاشى ، كأصوات الذين الطويلة والقصيرة في مثل (عل و محمد حضر امبارح) .  
ونلاحظ في دراسة اللهجات العربية ، القديمة ، والحديثة ، ما يقيننا في هذا المجال ، ويلقي ضوءاً قوياً على حياة البداوة ، والحضارة في عصورها المختلفة .

### 3 - حياتها وموتها :

هناك ألفاظ في اللغة يكتب لها أن تعيش ، ويستمر وجودها للحاجة إليها . ولصلاحيتها للتعبير عن مرادها ، وذلك مرهون باستمرار ما يراد منها ، وقد يتقل معناها بعثاً للحاجة الاجتماعية إلا أنها تستمر لصلاحيتها لذلك أيضاً ، وقد يموت معناها تبعاً للتغيرات الاجتماعية التي تبطل هذا المعنى أو تؤدي إلى تغييره فنموت الألفاظ أيضاً . فأسماء كثيرة من آلات الحرب وغيرها قد بطلت نتيجة لبطلان استعمالها ، وكذلك بعض الألفاظ الخاصة بأجزاء الغنائم ، في الجاهلية التي أبطلها الإسلام ، مثل : المرباع والصفايا وغير ذلك من الألفاظ .

وفي بعض الأحيان يحيا اللفظ بعد موته ، فقد أحيا الأدباء والعلماء في العصور الحديثة كثيراً من الألفاظ القديمة . للحاجة إلى معانٍها ، وتبعاً للمخترعات الصناعية التي تستلزم بعض المصطلحات ، ومن هنا وجدناهم يعودون إلى اللغات كثيراً من الألفاظ المهجورة ، وهذا يضيف جزءاً كبيراً من التراث اللغوي كان مهملاً ، فيعيد إلى اللغة جزءاً مفقوداً من ثرواتها . وكثير من الألفاظ التي وجدت في الغرب تسير على هذا الطريق ، وتشمل مصطلحات متعددة في الصناعات والفلسفات والعلوم . ولذا نلاحظ أن اللفظ يحيا في عصر ، ويموت في عصر آخر تبعاً للنظم الاقتصادية ، والحياة الاجتماعية في إطارها المختلفة فلفظ (الاشتراكية) كان معروفاً في اللغة إلا أنه لم يدر استعماله بمثل ما دار به في هذا العصر ، ولفظ التراشق بالتيار لم يكن يلاحظ قبل اندلاع حرب السويس . ولفظ (صاحب المعالي) أو (صاحب السعادة) كان شائعاً قبل الثورة . ثم أختفى كل منها بقيامها .

المتعلقة ، فحاول الإسلام أن يرقق منها في الحاضر - كمكة والمدينة - حيث العمارة ، والمدنية . والمحضارة . التي يناسها خفض الصوت ، فيه القادمين على أن الأصوات العالية لا تليق في مكان لا يحتاج إلى علوها . قال تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُو أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهِرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ إِنْ تَحْبَطْ أَعْمَالَكُمْ وَإِنْمَا تُشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَنادِنُوكُمْ مِّنْ وَرَاءِ الْمَحْرَجَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» . وقال سبحانه : «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لِصَوْتِ الْحَمْرَ» .

ونلاحظ في الحركات أنها تأخذ الشكل المناسب لحياة البدوين ، والحضريين . فالحركات القوية - كالضفة - يميل إليها البدويون لتناسبها لحياتهم . على حين أن حياة المدينة الرئيسية الوادعة داعية إلى الأصوات الرقيقة . والحركات المشاكلة لها . كالكسرة . التي قالوا أنها عالمة المؤثر . وأماراة الرقة . وصغر الحجم .

وكلاً انتقل المجتمع من حال إلى حال تتطور الأصوات اللغوية . ففي اللهجات العربية الحديثة وجدنا صوت (القاف) العربية يتطور في القرى إلى صوت (الجيم) مثل : (قال) تنطق (جال) وفي المدن - كالقاهرة وطنطا - تنطق (هزة) فتصبح (آل) . ووجدنا في القرى (الصحلك) - بضم الصاد . وفي المدن (الصحلك) بكسرها . لأن الضمة تناسب مجتمع الصلابة . والخشونة . على حين أن الكسرة لمجتمع الرقة . والحياة الناعمة .

وقد تحدث تبدلات للأصوات عند بعض الناس تبعاً للبيئة التي تصبح الألفاظ بصيغاتها . فثلاً نجد في الصعيد من ينطقون (جاموسة) ، (داموسة) . ومن يقول هناك (لع) بدلاً من (لا) في مجتمع المدينة ، (ولا) في العربية الفصحى .

وبتلات الأصوات أحدثت ثورة عنيفة في اللغة العربية واللغات الإنسانية - بعامة - وتحتاج دراستها إلى جهود تكشف عن تطورات الألفاظ ، وعلاقتها . ومدى تأثيرها بالتقدم الحضاري .

#### 4 - اضافة اللفاظ جديدة :

الزمن ، والصلات بين المجتمعات ، والحياة بظاهرها المتعددة ، كفيلة بتغيير الأوضاع اللغوية ، وتراكيبها ، فالرجل البدائي - كالطفل - لا يملك قوة العبارة ، أو سلامتها وسلامتها بل يركبها حسباً يشاء له تفكيره الساذج ، وتبعد عليهما المللية والسلبية ، لأن حياته ليست رتيبة ، ولا نظام فيها ، وعندما يسمو تفكيره ، تسمو لغته ، وتتصبح دقيقة التعبير ، منسقة المسالك .

وتراكيب اللغات عرضة للتغير ، وقواعدها النحوية والصرفية عرضة لذلك أيضاً ، يقول بعض الباحثين : أن الأمم القديمة كانت تصنع الجمل في الوقت الذي تصنع فيه الفكرة التي تحملها ، وهي لذلك تحتاج إلى ملاحة الجزيئات ، وأدوات الفصل ، والوصل ، وأنواع الروايد التي (تتجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلي في الفكر في لحظة التعبير على حين أن المتكلم باللغات الحية المعروفة يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخلياً ، قبل سبكتها في قالب الكلام ، فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلي في بناء الفكرة نفسها) <sup>(36)</sup> ومن هنا ضاع الاعراب في اللهجات العامية العربية ، وفي معظم اللغات البشرية كما هو مشاهد الآن .

ويذكر المباحث السابق أن الانتقال من التركيب العربي إلى التركيب الموقف بعد ظاهرة حتمية في تطور اللغات <sup>(37)</sup> .

كذلك الأوزان التصريفية عرضة لهذا التبدل والتغير ، فثلا (غار فهو غائر) - من غار على عرضه يعني : تمسك بمحابيه - يقال : في التعبير العامي (غiran) - على فعلان - خلافاً للوزن العربي ، وصياغة المضارع اختلفت طرائقها في القديم والحديث كما شاهد في عامتنا ، ولعنتنا الفصحى .

كذلك الغزو اللغوي يمكن أن يترك آثاراً في أساليب

تتحدث اللغة بعض اللفاظ للحاجة إليها ، فقد يكون المجتمع بدايتها ، ثم يتطور ، وتكبر معه المخترعات ، وحالات الحياة ، وقد لا تنهى اللفاظ اللغة بذلك ، فتحتاج اللفاظ تستعمل في هذه التواحي ، والارتجال ظاهرة لغوية فعالة تحدث عنها العلماء ، وقد قال ابن جني : إن العربي الفصيح يرتجل ، ويكون ذلك بالحياء اللفاظ قدية ، أو بالاشتقاق منها ، ويمكن أن تنشأ بعض اللفاظ دون سابق وجود لها ، وهذا يقع في اللغات الأجنبية ، وفي لغتنا العربية ، وفي لهجاتنا العامية كثير من تلك اللفاظ المخترعة تبعاً لحالات الحياة النامية .

#### 5 - اقتراض اللفاظ :

تبعاً للعلاقات التي أشرنا إليها بين لغة قوم وآخرين ، سلمية كانت أو حرية ، فإن اللفاظاً من لغات الطرفين تنتقل إلى كل منها ، وتستعمل في التبادل اللغوي ، ويدخل في ذلك ما يسمى في العربية بالتعريب ، فاللغة التي تأخذ بعض اللفاظ تحاول اخضاعها لقوانينها الصوتية ، وموازيتها البنائية ، حتى تشكلها ، وتجري على لسان أربابها ، بعض الأصوات لا يوجد في لغة ما ، ويوجد في غيرها كصوت <sup>P</sup> في اللغات الهندية الأوربية ، في الفارسية مثلاً - (پندق) عرب إلى (فندق) بالفاء ، و(پرند السيف) إلى (فنده) بالفاء أو (برنده) باء خفيفة .

وقد يحدث اتصال لغة بأخرى عدواً على نظمها الصوتية ، وطغياناً على لفاظها ، فتحل اللفاظ من اللغة الغالية محل نظائرها من اللفاظ اللغة المغلوبة ، ويكثر ذلك ، فتمزق مجالاتها الصوتية ، وتستولى عليها ، وتقضى عليها في النهاية ، ويترك هذا الصراع آثاراً في اللغة الغالية فتشوه بعض صوتياتها ، ومفرداتها وهذا يتوقف على حدة الصراع ، وامتداد زمانه بحيث يتناسب معه تناسباً عكسيّاً .

(36) د. حسن ظاظاً : اللسان والإنسان ص 121 .

(37) نفسه 120 .

يجذب جماعه التي ينتهي إليها - في ضوء العوامل ، والظواهر الاجتماعيه التي تتصل باللغة ، وسلوك أفراد الجماعه ، ويدرس المعنى ، والألفاظ في ظلال التاريخ الغوي .

وتتناول اللغة من هذين الجانبيين الوصفي ، والتاريخي يتبيّن أن اللغة تعد ميزا فريدا ومميزة طبقيا ، فيمكن أن تدرس اللغة والسياسة - اللغة والاقتصاد - اللغة والدين الخ ، وعلى اثر ذلك نستطيع أن ندرس مراحل التطور اللغوي وصلته بالمجتمع ، وأثار احتكاك اللغات واللهجات .

وقد كان علينا القدامى في دراستهم للغة يغفلون هذا الجانب المهم ، وهو الجانب الاجتماعى - ومن ثم جاءت تفسيراتهم - في بعض الأحيان - غير سديدة ، ولكن بعض علماء الغرب تبعا للمدرسة الاجتماعيه التي أسسها (أميل دوركم) أدركوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فحاولوا دراستها على هذا الطريق ، وهذا حذوهם بعض علماء العرب في العصر الحديث .

اللغات فيغير بعضها ، مثل ما نسمع في العامية (هات واحد شاي) وأصله (أعطيك يا من الشاي) - (قابلني اثنين من الشبان) والتعبير العربي (قابلني شابان) .

ومثله تسرب بعض الأساليب والعبارات الأجنبية إلى العربية ، مثل : (ذر الرماد في العيون) (العب دورا هاما) ونحو ذلك مما يمكن تبعه في اللغات الإنسانية .

وهذا اللون من الدراسة يكشف عن المنبع الصحيح لدراسة اللغات الإنسانية بتتبع سيرها التاريخي ، وما يحدث فيها من تغيرات في معاناتها وأصواتها ، وتراكيبيها ، وما يفقد منها ، أو تستفيده بعضها من بعض .

ويمكن للباحث أن يدرك كيف يستطيع المجتمع أن يوجه اللغة إلى الطريق الذي يسير فيه ، وأن يخضعها لعوامل المحافظة ، والبقاء ، أو الانقسام والموت .

ويمكن - على هذا المنبع - أن تدرس اللغة في ظل علم الاجتماع وأن تعرف طرائقها الاجتماعية .

فتدرس اللغة دراسة وصفية ، تتناول الإنسان من حيث نشأته ، وتدرجه في جماعة معينة وأثره في اللغة -